انشطار الذات بين طرفين بلا توسطات

دفاعا عن المعرفة المرحة

يقول فوكو بصدد احد كتب دولوز: (انه يقف على الضد من المناضلين المتجهمين وتكنوقراطيي الرغبة وموظفي الحقيقة). ويبدو انه حتى في بلاد الغال يقترن النضال بالتجهم. ولاندري لماذا اصبح كل ما يسعى الى ان يحظى بمنزلة مهمة، يتخذ شكلا متجهما، مقطبا وحزينا. واذا كان مفهوما ان اللاهوت لا يمزح وشانها ان السياسة كذلك فانه ليس مفهوما ان الفن لايبتسم، ولا يمزح.

لايكتمل النضج الا بتكامل الرصانة والسخرية.

والشهادات بهذا الخصوص كثيرة ومتواترة بما فيها التاريخ الفني والفكري فأثينا اسخليوس وسوفكلس، أنجبت اريستوفانس. ولم يتكامل الفكر الغربي الا مع (المعرفة المرحة) لنيتشه.

نيتشه

احمد هاشم شغيان

الجدية المفرطة تاخذ المرء بيدين امينتين لتسلمه الى التطرف. وعلى مستوى التشكيلات والآراء نجد هذا التطرف. في كل نقاش او مساجلة يتمترس كل طرف وراء خندقه المناقض ويحمل كل أدواته ليبني اسوارا تغلق المنافذ والمسارات الى تهشيم هذا الانغلاق والتراص والتمحور. ولا يمكن وجود التطرف من دون انغلاق، ومن دون اتخاذ مسافات شاسعة للابتعاد عن أية نقطة تتوسط او تقرب بين الاطراف المتباعدة. قد نستهون التطرف او نحاول ان نجافيه او نهمله، لكنه سيظل ماثلا بكل كثافته وتركزه، وقد نكون ضحاياه يوما، فكرا وعملا، في السياسة والدين وحتى في الفن.

فمسرحنا مثلا متطرف: فهو اما مسرح جاد جدا (لايدري احد لماذا نادرا ما نجد مسرحية جادة ساخرة)، لا يمكن للضحك ان يجد مكانا فيه مسرح جاد جدا لا يبتسم مطلقا، فالابتسام خدش لقدسية هذا المسرح. والمسرح بالنسبة للبعض لاهوت جديد سيحرق ثانية كتاب الضحك لارسطو على غرار ما حصل في (اسم الوردة).

وبرغم ماكنا ننتظره من الفن كي يصبح انسانيا الا انه استعار قناعا لابشريا وغير ارضي.

وعلى الطرف الاخر- بما ان التطرف وهو إلتقافيا من الطرف مسرح تجاري لم ينل حتى اسم (المسرح الشعبي). وظل التوسط غائبا: التوسط الذي يأخذ من كل طرف فضائله قدر ما يستطيع ليحد من غلواء كلا الطرفين. ونظرا لانعدام هذا التوسط لم يولد لدينا عادل امام آخر او زياد رحباني آخر او فرق مسرحية على هذا النمط.

سيقال لنا ان ثمة تجارب بهذا الصدد. ولكن لماذا لم تتحول الى ظاهرة؟، ظاهرة مستقلة سنجد شماعات كثيرة. سنتفق بالتاكيد بصدد اسهامها في تخريب الذائقة وتعطيل مسيرة الفن. ولكننا هنا نحاول ان نجد الاختلالات الداخلية اللصيقة، نوعا من التحايث والتضمن والدخول في المادة نفسها. وهو ما يفضي الى القول ان الذات لا تريد ان تتصالح مع ذاتها اي مع اختلافها وآخرها الذي يتمتع بأحقية الوجود وشرعيته.

يتمثل ذلك في مظاهر الاستخفاف- لدى المسرحيين الجادين بكل ماهو كوميدي والتقليل من شانه ولكن لابد وانهم في خلواتهم يشاهدون المسرح الكوميدي، ويقعون على فضاهم من الضحك لموهبة بعض الممثلين في التقفيشات.

((المسرح الكوميدي يعني بالفعل غير النبيل وبالتالي سيقود الى الاسفاف)). هذا ما يقوله حتى التجريبي العراقي. وهو ما قاله ارسطو. وهكذا لايقول التجديدي جديدا، وهكذا يتحول التجديدي الى كلاسيكي دون ان يدري، ويزكي ارسطو الذي ينتقض التجريبي على معاييره، وكأن مسرحيينا لا يتفقون مع ارسطو الا حين يعتقدون انه يظاهر ما يعتقدون، برغم ان الرجل وصفي اكثر منه معياريا.

معظم الناس معجب بالممثل الكوميدي ولكن قلة من ممثلينا تجرؤا على ان تكون عادل امام آخر او زياد رحباني آخر، وبدلا من التعامل مع ما نفهم اصبحنا ميالين الى ما يتعذر فهمه لدى الكثيرين (النص الغربي).

قوة التسفيه ليست بالهينة لانها هي التي تجعل من معتقداتنا إنسانية وبشرية وارضية. وإلا ما الشغل الشاغل للتكتة؟ انه ما يتخذ مظهرا جديا: السياسة والحرمات بأوجهها المتعددة.

ان المجتمعات المتسامحة والآمنة والمستقرة هي المجتمعات المرحة والساخرة. واظن المجتمع المصري كذلك. ولو ان حلقة واحدة من حلقات الكاميرا الخفية نفذت عندنا لأفرزت ردود فعل لا يعلمها الا الله، فلربما توقع خسائر منظورة وغير منظورة في الارواح والمعدات!!!!!

لابد ان يتذكر المرء تلك المقولة: ((اذا اردت ان تضحك عليك الاخرين فتجهم)).

النجف.. ذاكرتي النازفة

اوراق

حيدر سعيد

-1-

في سنة 1980... كنت في العاشرة، وفي احد ايام شهر نيسان، عرفت فيما بعد انه التاسع منه او العاشر. كنت اسير في شارع الصادق، الشارع الرئيس في المدينة، والقريب من ضريح الامام علي بن ابي طالب. كان الشارع خاليا من السيارات، والناس متجمهرون. مظاهرات واطلاق نار وهتافات: (عاش عاش عاش الصدر/ الدين دومه منتصر). لم اكن افهم الامور حينها. أدركت، بعدئذ، ان تلك اللحظة كانت احدى الذروات الكبرى لصعود الاسلام السياسي في العراق. غير ان الامر لم يكن يرتبط بمحمد باقر الصدر، الشهيد، فقط، بل بالناس واختياراتها... بشعاراتها نفسها. وبالاحرى، كانت تلك اللحظة الذروة الكبرى في اختيار الجماعة الشيعية العراقية للحوزة العلمية ولرجال الدين بوصفهم الفضاء التعبيري والممثل الوحيد عن الذات والصيغة التي تظهر بها الهوية ويتبدى من خلالها الانتماء. ولذلك، كان التماهي الجماهيري الكبير بمحمد باقر الصدر، ولذلك أيضا، كان ضريح علي مكانا للتظاهر والاحتجاج.

-2-

وفي سنة 1991، وفي أوائل آذار،... في اليوم الثالث منه على وجه التحديد، إذ إنني كنت، في ذلك الوقت، قد بدأت أعي الامور بشكل مختلف، وبدأت أحفظ السير والتواريخ. في الشارع نفسه، وقرب ضريح الامام علي ايضا، خرج المتظاهرون، من جديد، يرفعون صور محمد باقر الصدر المعدوم والمحظور- رمزا للثورة، ويحرقون صور صدام حسين، ويهدمون رموز السلطة من مبان واشخاص. كنت معهم. بعد ان تطهر (بهذه الكلمة المغمسة بالسياسة والايديولوجيا) الضريح من آخر حارس بعثي، دخلت اليه. كان فارغا الا من بضعة رجال ونساء كبار في السن انقطعت بهم السبل بعد اندلاع المظاهرات. قبلت شباك الضريح، كما يفعل اهلونا. ها هو الضريح تحرر. تحرر ضريح علي بن أبي طالب. تحرر لم يكن لمكان ديني مقدس فقط، بل تحرر لذاكرتنا ولاحد رموزنا الثورية. فليس المهم في علي أنه ابن عم الرسول واحد الائمة المعصومين، بل الاهم انه الرمز الذي تشكل في سرودنا ومروياتنا الكبرى،... معلم الشجاعة والقيم الكبرى والعدالة والزهد السياسي. وان تقبل شباك ضريحه في آذار 1991، في لحظة خلا فيها من آخر حارس بعثي، يعني أنك تقوم بفعل ثوري، يعني انك تستعيد الثورة.

-3-

يمتزج علي بن أبي طالب بحكايات الجدات وخيالات الاطفال. البطل الذي قذف صخرة عملاقة من الهند فسقطت في العراق، وليد الكعبة،... الذي تزوج في السماء، الذي أعاد الشمس، الذي قاتل الجن، الذي قتل عمرو بن ود العامري ومرحب، المتعفف في الحكم، الذي لم يقاتل مغتصبي حقه في السقيفة لأنه لا يريد سفك الدماء، الذي مات فقيرا وقد حكم الارض والسماء، كان ضريح علي بن أبي طالب مكانا شخصيا وذاتيا.

-4-

بعد اسبوعين من ثورة آذار،... من قبلتها الثائرة، بدا القصف العشوائي الذي قام به الجيش العراقي على مدينة النجف. التجأ الآلاف من ابناء المدينة الى ضريح علي: المكان الوحيد الذي يمكنه ان يمنحهم الأمان كرامة إلهية. لكنه خذلهم هذه المرة. فقد تقصد نظام صدام أن يقصف هذا المكان،... لا لانه اراد ان يهدم الرمز العقائدي للنجف، ولا لانه اراد ان يذبح الرمز الهندسي للمدينة، بل لانه أراد ان يدنر رمز الثورة فيها.

كان الامر، مرة أخرى، فعلا في البلاغة والكلمات والمفاهيم، اكثر منه فعلا في الحقيقة.

-5-

بعد اقل من ثماني سنوات، في سنة (1999)، لم اكن في النجف، بل كنت أتابع الامور من بعيد. لم تعد النجف مهيأة للثورة التي سيتكفل بها الاغراب. وهكذا، صفى نظام صدام حسين رموزها الثورية،... وهي صامتة، صامتة.

-6-

وقبل ايام فقط، انفجرت السيارة المفخومة امام احد ابواب ضريح الامام علي، وقتلت العشرات والعشرات. كان احدهم السيد محمد باقر الحكيم. كنت اشاهد الحادث من على شاشات التلفزيون، كأنني أجنبي بارد. لم يدخل الامر حيز التذكر بعد، فلم يزل طريا وطازجا، غير انه اعاد الذاكرة الى نزفها. انفجرت السيارة امام (باب القبلة)، التي قد لا تعني شيئا للكثيرين، وقد لا يعرف الكثيرون شيئا عنها، ولكنها تعني لي الكثير، وأنا أعرف عنها الكثير، فهي تختلط بقاع الذاكرة. والاكثر من ذلك، ان مدخلها يضم مرقد السيد محمد سعيد الحبوبي، الثائر، الذي خرج من مدينته، سنة (1914) ليدعو العراقيين الى مقاتلة الانكليز. صورة الحبوبي اهتزت اليوم فوق قبره،... كما اهتزت في دواخلنا قبل ذلك.

-7-

والان، التفت اليك، في الاسلوب والقلب والروح والكلمات والعاطفة والجسد.

ادرك انك لم تكوني مدينة للطهر فقط، بل مدينة للخرافات والعشق والسياسة والحكايات والدهاء والشعر والتحزبات. هكذا تتشكل اسطورتك، من سفينة نوح التي رست في مسجد الكوفة الى قصر الإمارة فيها، ومن آدم أول الخلق، الذي يرقد الى جانب علي بن أبي طالب الى الناقة التي حملت جسد علي من الكوفة بعد ان قتل فيها، ومن الغزالة الهاربة التي وقفت عند قبر علي اجلالا وتهيبا بعد ان كان يطاردها الرشيد في إحدى رحلات صيده، الى حصار الانكليز، من السراديب والمقابر الى الشعراء والشذاذ والتجار والعباد والزوار والمصلين والاولياء والشهداء.

هل أحبك الى هذا الحد؟ كنت أكرهك،... أكره تلفتك الدائم الى الوراء،... أكره من يسحبونك الى الخلف،... اكره خمودك ومهادناتك، وجبنك أحيانا، فكيف انفجر كل هذا الحب في هذه اللحظة؟

اريد أن أعود اليك الآن، وان أقبل شباك ضريح علي مرة أخرى، لا بحثا عن الثورة، فنحن لم نعد نقوى عليها، وقد تكفل بها الاغراب،... لكنني أريد ان اضع على رأسك قبلة سلام.

لتنعمي، الآن، بالهدوء والطمأنينة، وقد مشينا معا درب الآلام،... الطويل والعسير والشاق.

إسماعيل نوري الربيعي

أزاء الفشل الذي خلفته تفاعلات الحركات الايديولوجية لدى العرب، بات التطلع شاخصا نحو العودة إلى سؤال النهضة كنوع من التعويض أو كمحاولة لملء الفراغ الفكري الذي بات يفرض بأحواله وتداعياته على واقع العلاقات السائدة، حتى لم يعد حاضرا سوى تيار الرفض والإحباط المقيم في النفوس، حول هذه التناقضات التي تترى من دون انقطاع. وإذا كان التطلع يأخذ شكل التلبسات المباشرة، والتي تفرضها ملامح البحث عن البديل ومحاولة النزوع نحو إثبات الذات، إلا ان الأمر لا يسلم من هذا التعالق الأيدولوجي الذي يبقى كامنا في محتوى الفكر والتنظير، حتى ليكون الطابع الاقتصادي وقد أرخى بكل ثقله على الواقع العربي. حيث البقاء في دائرة التنظير والتوكيد على مجال المقولات، من دون التوجه نحو تحديد برنامج للعمل.

التطلع نحو تفعيل خطاب النهضة لم يكن بالأمر الجديد، الذي فرضته مرحلة سقوط الايديولوجيا وانتهاء صلاحيتها، بحساب سقوط النموذج الأكبر والأشد وضوحا. الأمر هنا يتعالق بطبيعة التفعيل الفكري والذي يبقى مراوحا وسط ثنائية الأصالة والمعاصرة، والتي تبقى محكومة لهذا الأثر الذي تحدثه مقومات الشرعية. حيث التقارب الشديد مع المضامين التي تطرحها التيارات الأخرى، من خلال استحضارها للاتهامية الواقعة في إسار الانضواءات والانتماءات، حتى ليكون الفرز في أصل الاجتهاد وروح التفسير الحدد، الذي لا يقبل زاوية اخرى للنظر.

الآخر المتقدم

الارتكان إلى مفهوم النهضة، يبقى الإضاءة الوحيدة والفريدة، الذي تسعى إليه جميع الاتجاهات والتيارات الفكرية من دون استثناء، كمحاولة منها لردم هوة الانسحاق والتردي الذي يحيط بمجمل النشاط والتفاعل الذي تقوم على أدائه. فعلى الرغم من قوة الزخم النظري الذي تبدت عليه التيارات الفكرية، باعتبارها حاملة لمشروع النهوض واليقظة والتحريض نحو حفز الواقع، والعمل على ردم الهوة الفاصلة الواسعة، التي تحدد مجال الفعل والنظر مع المجتمعات الأخرى. إلا أن المباركة والتأصيل يبقيان حاضرين في هذا المضمون الذي يتعالق مع النهضة، التي تبقى الحلم وليس الأمل. هذا بحساب كم اليوتوبيا الذي تم تحميله فيها، حتى صارت الأقرب إلى السراب.

لقد توقف الجميع عند النهضة من دون استثناء، وإذا ما حاولت بعض التيارات الانتقاء في فرز بعض ملامح الخطاب النهضوي وتكريس أسماء بعينها، خدمة للفكرة التي يتم انضاجها والإعداد لها. فإن المعين الكلي يبقى فاردا قسماته، على أشد المتقاطعين مع بعض الطروحات التي جسدها خطاب النهضة. وعلى هذا فإن الحضور يبقى شاخصا لرموزها بدءا من الإسلاميين مرورا بالعلمانيين، من دون استثناء أو

في أشد حالات التأزم الذي يعيشه العرب، يفرض سؤال النهضة حضوره على الواقع بكل قواه.
ومن قوام فشل الماضي إلى ضعف وترهل الحاضر، يعيش العرب حالة النهول الذي لا يعرف الانقطاع،
حول إفلات الفرصة الأولى، التي ظلت قابعة في مدركات التنظير والتجريد. بينما يبقى الحاضر
يفرز المزيد من التناقضات والتداخلات، التي تزيدها حلكة وقتامة تلك التحديات، التي ما انفكت تفرض نفسها
إن كان على مستوى السيطرة المباشرة والتي تمثلت بالاستعمار،
أم بالتحديات التي تحددها الفعاليات المرتبطة بالعولمة والتداعيات التي تعززها على مستوى العالم.

في مضمون النهضة

تهميش لهذه الجهة على حساب تلك، فالإضاءة تبقى واحدة بعمومها وشمولها.

شكل سؤال النهضة نقطة الوصل الأهم في تفعيل مجال التفكير العربي، في مجال الحفز بالطبع وليس الأصول. فالمرجعيات الفكرية تبقى قائمة لا يمكن التغاضي عنها أو تجاشيها. لكن الركام من الهيمنات المتتالية جعل أمر الوقوف على مدركاتها ومضامينها شديد العسر.

وعلى هذا اجتهد الرواد النهضويون في إطلاق المزيد من الأسئلة، التي كانت من المحرمات بل والكمون في دائرة المسكوت عنه، وعليه فإن صدمة التلقي التي وقع في تونها الشيخ رفاعة الطهطاوي (ت1873)، جعلته ينادي إلى أهمية الالتفات إلى علوم الغرب وثقافته، والتي أحالت موجبات النظر إلى عمل يشيد الأوطان ويعمر البلدان، حتى كان عمله وقد تركز في هذا القوام الذي يجعل من الآخر متقدما، بحساب التمكن من وسائل الإنجاز والأداء من دون انكفاء.

الذات الإسلامية

يركز خير الدين التونسي (ت1889) رؤاه في هذه الأهمية التي تكمن في استبصار منجزات الآخر، حيث التطلع نحو التفاعل والانفتاح على الآخر، إن كان على مستوى الأفكار أم طريقة الأداء والإنجاز، ولعل الأمر الأهم الذي يتوقف التونسي عنده، يتجلى في ذلك التأكيد على التوافق ما بين إمكانية اقتباس الأفكار والنهل منها، وطريقة التوافق مع الشريعة الإسلامية، حيث يحضر العامل الديني بكل قوة انطلاقا من نقطة التماس التاريخي، الذي كان يعمل في صميمها التونسي.

لقد ألحت فكرة التمدن بكل قوة على مفكري النهضة، خصوصا أن الكشف المباشر عن أوجه المقارنة يفصح عن هذا الفارق الهائل والذي لا يتوقف عند قطاع أو حقل بعينه، بقدر ما يكون الفاصل الحضاري برمته شاهدا على عمق الهوة بين العرب بكل خضوعهم للسلطنة العثمانية وترهلاتها وانكفاءاتها. بينما يكون الانشغال والتركيز حول أهمية الاحتكام إلى طبيعة الأحوال التي بلغها الآخر، والسر الكامن وراء تفوقه، ولكن من دون الولوج في الاستلاب وتضييع مقومات الهوية الذاتية التي تندرج تحديدا في معين الشريعة.

تطلع الأفغاني (ت 1897) إلى توجيه جهوده نحو الذات الإسلامية، حتى جعل من خطاب النهضة نابعا من الداخل، وليس نتاجا لطبيعة الاقتباس والنهل من الآخر. وعلى هذا فإن جهوده تنصب نحو تكريس مجال القراءة الداخلية، والتي ترى أن الضعف قد بدأ عندما تخلى المسلمون عن الوعي الصميم والحقيقي بالإسلام نهجا وعقيدة.

وعلى هذا فإن ترصدات الضعف والضلال، تكمن في هذا التباعد الذي تبدى بوضوح شديد عند السلطة العليا، التي ابتعدت عن مكنون الخلافة ومدركاتها العميقة، واتجهت نحو الملك العضوض والذي غدا نهبا للطامحين والطامعين، من دون الوقوف على المكامن والأصول التي كانت بمثابة الحافز والدافع للمجتمع الإسلامي نحو تدعيم مجال القوة والحضور، المتمثلة بالقيم الإسلامية السمحة. وعلى هذا فإن الأفغاني يركز على أن النهوض يكمن في التوجه نحو الإصلاح الديني.

الإصلاح الشمولي

توجه محمد عبده (ت 1905) إلى توكيد دور الإسلام العقلي وصلاحيته لكل زمان ومكان، فالأمر لا يتوقف عند المعطى القدسي، بل ان المضامين التي يحملها على مختلف الصعد والمجالات، يجعل منه قادرا على توجيه المجتمع للنهوض نحو مصاف المجتمعات الحديثة، والتي تفصح عنها التجربة الأوربية وما بلغته من تمدن وحضارة، والتركيز الأوضح الذي يعمد إلى تثبيته الشيخ عبده يقوم على هذه العلاقة الوثيقة بين الإسلام والعلم. هذا بحساب ان النهضة الأوربية إنما جاءت وتفاعلت انطلاقا من سيادة الروح العلمية.

يبرز التأكيد على أهمية المكانة الأثيرة والمميزة للعلم في الحياة الإسلامية، بل أن النموذج الإسلامي كان النهل الرئيس الذي اقتبس عنه الآخر، في سبيل تثبيت معالم تجربته الحضارية. وعليه فإن الشيخ عبده يعمد إلى دحض المقولات التي كان يرددها البعض من المستشرقين حول الجمود والتخلف الذي يعترض سبيل الأمة العربية تحت دعوى الكمون في التقليد والاتباع الذي يمثله الإسلام. ومن واقع الترصد يكون الخلل في خروج المسلمين عن الإسلام، هذا بحساب التراكم الذي بات يترى على المجتمع الإسلامي، وتطور المدخلات الغريبة والطارئة عليه. حتى كانت الدعوة الصريحة والجريئة إلى أهمية نبذ التقليد، الذي بات يشكل العقبة الكؤود في وجه التغيير والتفعيل ومن ثم النهوض وأهمية العمل إلى البحث عن المكامن الأصيلة والصادقة لروح الإسلام الأول الخالي من الشوائب والأعراض.

من هنا تبرز دعوة الإصلاح في صميم الأوضاع التي تحيط بالأمة، والتي تتخذ طابعا شموليا واسعا، حيث أهمية توجيه الفعل والعمل نحو التفحص الدقيق في العلاقات الاجتماعية، وحفز النظر نحو التغيير الذي يشمل مجمل القطاعات الرئيسة في الحياة، من تعليم وثقافة وسياسة واقتصاد، فالترابط العضوي يكون الملمح الأهم في دفع عجلة العلاقات نحو الأمام، وليس التوقف المعيق أو إغماض العين عن الأخطاء والتداعيات.

وعليه فإن النهضة لن تكف عن تقديم مبرراتها وتوجيه أسبابها مادام ان الوهن والاختلال يبقيان قائما.

TUCH

مؤيد نعمة